عرض كتاب

The Kenana Handbook of Sudan

كتاب كنانة التعريفي بالسودان

عرض إ.د. حسن مكي محمد أحمد
عميد مركز البحوث والدراسات الإفريقية
جامعة إفريقيا العالمية

أما كنانة فهي إشارة لشركة سكر كنانة والتي قفزت باسم قبيلة كنانة إلى آفاق العالمية ، حيث أصبحت كنانة عروسا ليس فقط للصناعات المحلية ولكنها اكتسبت وضعية عالمية ، ولكن كنانة التي أخطب ودها اليوم ، هي كنانة التى أصدرت كتابا جامعا باللغة الإنجليزية باسم كتاب كنانة التعريفي بالسودان ولعل إدارة كنانة تواضعت في اختيارها لهذا العنوان، لأن كتابها كتاب موسوعي احتوى على دراسة متعمقة في المسألة السودانية وأسهم في الدراسة سبعة وعشرون متخصصا سودانيا كل في دائرته بالإضافة إلى ثلاثة وعشرين مشاركا من أهل التخصصات في السودان من غير السودانيين .

ويقع الكتاب في إحدي وعشرين وثمانمائة صفحة من القطع الكبير بالإضافة إلى ملحق يضم الفهارس واشتاتا من المعلومات والإعلانات .

وقام بتحرير الكتاب شخصية عالمية معروفة (بيتر هوبكينز) كما قدم للكتاب كل من وزير الصناعة د. جلال الدقير ومدير سكر كنانة السيد عثمان النذير

تعطي قائمة محتويات الكتاب ، فكرة عن المواضيع التي يغطيها الكتاب وتشمل السودان القديم وما فيه من آثار وما مر عليه من ممالك ، ثم فصل عن تاريخ تشكل السودان بدءا بالتاريخ الثقافي لمنطقة النوبة والسودان النيلي مرورا بتشكل مشروع السودان الحديث وأبطاله أمثال الخديوي إسماعيل وغردون والمهدي

وكتشنر ، بالإضافة إلى استعراض مسودات السودان واستعراض محتويات أرشيف جامعة الخرطوم عن السودان والسكك الحديدية السودانية ثم استقلال السودان .

ويبدأ فصل مبتكر بعنوان : (الحجيج والتجار) ، وفي إطار هذا الفصل تبرز مدن السودان القديمة كسواكن – وتداخل غرب إفريقية مع السودان والتمهيد للفصل لايقل ابتكارا عن سابقه يتحدث عن البيئة السودانية وما فيها من نباتات صحراوية واستوائية وحيوانات برية – ثم يدخل الكتاب على موضوع السودان المعاصر وعاصمته بمدنها الثلاث وصورة للأطعمة والمأكولات ثم مباهج البحر الأحمر وما فيها من شعب مرجانية وكذلك إبراز مشهد النيل الأزرق ومافيه من متعة وإثارة للمغامرين والمكتشفين ، ثم تحدث عن الدين عند الدينكا والنوير ، حيث اعتبر الكاتب التقاليد الدينية عندهم مرتبطة بالتقليد الإبراهيمي – أي قائمة الأديان التوحيدية ، ومقالة عن دافع التعايش الديني في السودان ورؤية تحليلية للإسلام في السودان .

وتم تخصيص فصل الفنون والآداب في السودان في محاولة لتحديد روح الأمة ، عن طريق تحليل الخطاب الأدبي والديني والفني في السودان في مجال الشعر والأدب والفن والثقافة ، ولكن وقبل أن تبتلعك جدلية الأدب والفن ، يعود بك الكتاب مرة أخرى إلى عالم المعاش والكسب ودنيا المال والأعمال ، حيث يدور الحديث عن الاقتصاد السوداني عامة ثم التنمية ، وعروس التنمية مشروع كنانة وبنك السودان وسياساته ثم الاستثمار والتواصل المالي والاقتصاد في بلد مترامي الأطراف ثم يعرج الحديث إلى صناعة السكر والبترول ومافيه من تحد وإنجاز وقضايا المياه والري والزراعة وتفاصيل عن السكر والقطن والصمغ العربي ثم تعانق الحاضر والمستقبل أو قراءة المستقبل من خلال الحاضر ، بإبراز الهندسة السياسية الجارية في السودان واتفاقيات السلام والأشكال الدستورية والقيادات السياسية الفاعلة .

هذا عمل كبير وددت لو أنه لم يضم ملحقا إعلانيا حتى لا تتأثر جدية المادة وكل.مكتوب يؤخذ عليه شيء وقد افتقدت في الكتاب فصل عن التعليم في السودان وأنسب هذا التقصير لشخصي ، لأن الأستاذ فريد عمر مدني دخل علي بمسودة الكتاب ومعها خطاب من د. الدقير لتحكيم الكتاب وإبداء الملاحظات وتابعني فريد بالهاتف حتى من لندن وأتت توصيتي بطباعة الكتاب وعلى الفور وكذلك اعتقد كانت شهادة بروفيسور يوسف فضل ومهما يكن، ففي الطبعات القادمة للكتاب يمكن ضم فصل كامل عن التعليم في السودان ، والحمد لله على طباعة الكتاب ، وفي قراءتي الأولى للمسودة بهرني العرض الجميل العلمي لوادي هور ، هذا الوادي الذي سيكون له شأن على مستقبل السودان مع أنه أصبح واديا جافا ولكن تشير الدراسات إلى أن الحياة بدأت عند هذا الوادي وإذا ما تم إعادة تأهيل هذا الوادي الذي يشق دارفور وتشاد ويربط ليبيا بمصر والسودان عن طريق ربطه بشبكة أودية وأنهار إفريقيا الوسطى وربما بأودية وأنهار الكنغو من عند خط تقسيم المياه وجعل بحر العرب نهرا جاريا طيلة العام ، فإن ذلك سيؤدي إلى مضاعفة إيراد النيل وإلى إخضرار الصحراء وفي تقديري أن هذا المشروع هو مشروع القرن بالنسبة للتعاون العربي / الإفريقي وبالنسبة لكل من مصر والسودان وليبيا وتشاد وإفريقيا الوسطى والكنغو . وأرجو أن تتمكن إدارة الشركة من عقد جلسة دراسة تقويمية للكتاب ، حتى تأتي الطبعة الثانية مستوفية لكل مطلوبات التعريف بالسودان .

لقد تم جزئياً التعريف بالكتاب وما تطرق إليه من قضايا والكتاب سعي مبارك لإعادة إحلال السودان فى موضعه الذي يستحقه في وقت تمّ فيه تمريغ وجهه وتشويه صورته وصرف الأنظار عن الصورة الحقيقية للسودان والتي قام هذا الكتاب بدور طيب في تجليتها.

وليس في طاقة هذا القلم، التحليل لكل مادة الكتاب ولكن يمكن مناقشة بعض ما ورد في فصول الكتاب، بقصد التنوير وإبراز الأفكار من خلال الحوار والتحليل، على غرار ما ورد في مقالة الدكتور نوري محمد الأمين، حول السياسة السودانية والتي وصفها بأنها تقوم على الثنائيات "فونج/عبدلاب" ، "انجليز/مصريين" ، "أشقاء/ استقلاليين" ، "ختمية/أنصار" ، "هلال/مريخ" وحركة شعبية / مؤتمر وطني – ولكن هل يصلح هذا المنهج لتحليل حركة السياسة السودانية، ألا يبدو مجرد معالجة فوقية لا تلج إلى عمق التركيبة السودانية المعقدة، حيث لم يكن السودان فقط فونجاً وعبدلاباً وإنما كذلك زنجاً ونوبة وهمجاً وبجة وشايقية ، ونجح الأزهري في رفع علم الاستقلال وتجاوز ثنائية أنصار وختمية، كما تركيبة الدولة السودانية قامت على الشوكة العسكرية، في ظل ممالك السودان القديمة مروراً بسلطنة الفونج والحقبة التركية والإدارة الإنجليزية المصرية، لذا طبيعة الدولة أو مشروع دولة السودان الحديث أميل لحكم النخبة العسكرية أو قابلة للحكم العسكري بحكم الطبيعة التاريخية والهيكلة ولا تكاد توجد جذور لما يسمى بفكرة ثقافة الليبرالية أو الحكم المدني ، حتى في المجتمع المدني ، تطغى الخريطة الصوفية وحكم السجادة الذي تنتقل فيه البركة من الآباء إلى الأحفاد وكذلك على مستوى شيوخ القبائل والسلاطين .

ومن ناحية أخرى، فإن أمثلة الثنائيات واردة من الناحية الشكلية في كل النظم والمجتمعات، فأمريكا أنجلو/ ساكسون وآخرون ، وجمهوريون وديمقراطيون، ومتدينون وملاحدة ، وكاثوليك وبروتستانت ، وكذلك بريطانيا ، عمال ومحافظون ولوردات وعموم، وملكية وديمقراطية ودعاة للأوربية وانعزالية.

ويطرح د. نوري سؤال استمرارية تحالف الحركة الشعبية والمؤتمر الوطني ومقدرته على إنجاز مطلوبات الوحدة على غرار الثنائيات السابقة التي نجحت في رفع العلم ونيل الاستقلال والحفاظ على وحدة السودان.

كما تحاول مقالة د. منصور خالد ولوكا دينق معالجة البيئة الصانعة للحرب في السودان، متأثرة بمنهج أبيل الير التمادي في نقض العهود ومدى مقدرة الضمانات الداخلية، والخارجية والهندسة التي قامت عليها اتفاقات السلام في تأمين وضمان سلامة تنزيل اتفاقيات السلام وتنتهي إلى أن اتفاقية السلام إنجاز على المستوى القاري، بما فيها من شورى شعبية ولا مركزية وبسط وتفويض للسلطات وحكم ذاتي مما يقوي فرص الاتفاقية في الاستمرارية ويعطيها الحصانة والمناعة اللازمة ضد الانهيار الدستوري والعودة لمربع الحرب .

ومن المقالات كذلك مقالة بعنوان: ثلاث إمبراطوريات على النيل، حيث يتكلم المقال عن الخيارات المطروحة أمام السودان في القرن التاسع عشر وهي: أن يحكم باسم الإسلام، أو أن يحكم باسم مصر، أو أن يحكم باسم ملكة بريطانية، ولعل هذه الخيارات ما تزال تراوح مكانها مع إعادة الصياغة وفق مطلوبات القوى الجديدة التي تشكل العالم في ظروف الصراع على الموارد وعلى الأخص البترول والماء واليورانيوم والذين أشعلوا الحروب في القرن التاسع عشر والقرن الثامن عشر من أجل البهارات ألن يخجلوا إذا ما أشعلوها من أجل التجارة والجغرافيا السياسية والموارد الاستراتيجية وعلى الأخص البترول. وكذلك تبرز مقالة عن تشكيل السودان الحديث وعلاقته بالدولة العثمانية وتشير إلى أن الدولة العثمانية كانت تعرف السودان بولاية الحبشة ولذلك الذي يبحث في الأرشيف العثماني عن السودان عليه أن يبحث تحت مسمى ولاية الحبشة ، وأن العثمانيين بدأوا التفكير في ضم السودان بعد ضمهم للشام ومصر في عام ١٥١٥م بعد معركة مرج دابق الشهيرة وبدأوا بضم سواكن في عام ١٥٨٥م ثم تقدموا في أراضي سلطنة الفونج والحقوا الهزيمة بالفونج بالقرب من جزيرة صاي في عام ١٥٨٧م، وقامت دولة الكشاف التابعة للدولة العثمانية بعمق ٢٥٠ كيلو متراً داخل السودان الحديث. وأن سواكن لم تعد إلى السودان الحديث إلا في عام ١٨٦٢م . ومما يلفت النظر كلامه

عن انتشار التصوف أو الطرق الصوفية في السودان على النمط الشيعي علماً بأن التصوف ظاهرة سنية لأن الفكر الشيعي يقوم على توحيد الوظيفة الدينية بينما انقسمت الوظيفة الدينية بالوصف السني إلى خلفاء يقومون على أمر الدولة وفقهاء يقومون على أمر الشريعة والمتصوفة يقومون على أمر السلوك والتربية.

وكذلك برزت مقالة أخرى عن سواكن تشير إلى أن سواكن أصبحت معروفة ابتداءً من سنة ٦٤١م وأن الخليفة الأموي مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية بعد الإطاحة به هرب إلى أكسوم الحبشة عبر سواكن. ولكن أول مصدر عربي عرف سواكن كميناء على البحر الأحمر هو معجم ياقوت الحموي في عام ١٢١٨م أي قبل ثمانمائة عام.

كما أبرز الكتاب فصولاً للأدب والفن والدين وأشار للغات الأخرى غير العربية والتي تحمل تراث الدينكا والفور والنوير والشلك والزاندي والباري بينما أهمل النوبة والنوبا والبجة وغيرها مما يثير سؤالاً ما هو مقياس الأدب أو الفن القومي وهل هو فقط الأدب الذي تتماهى دائرته أو حدوده مع حدود الأمة. الجغرافية، أو الأدب العابر للحدود الجهوية والسياسية، كما هو حادث في الفن السوداني بمفرداته العربية، ومقدراته على استيعاب مفردات إفريقية؟. كما برزت إشارات إلى بعض المحاولات بإيجاد مفاهيم مدرسية للثقافة السودانية ومدرسة الغابة والصحراء وغابة الأبنوس والعودة لسنار وأمتي والكلمات المنسية كما سعى د. خالد المبارك في مقالته لاستعراض نماذج من العادات السودانية عند النوير والفور، وأشار إلى الزار كمقوم من مقومات الثقافة السودانية. ولكنه حينما تناول الفن والفنون الجميلة ربط بينها وبين مشروع السودان الحديث، علماً بأن هذه الفنون عريقة تزدهي بها الكنائس النوبية القديمة والمعابد وفي نقوش النقعة والمصورات وفي مقتنيات متحف السودان كما برزت مقالات عن المرحوم السيد عثمان وقيع الله وأدب الطيب صالح وكان المطلوب أن تلحق بها مقالات عن إسهامات الأستاذ

عبد الله الطيب على الأخص الأحاجي السودانية وتفسيره للقرآن الكريم كما كان من المطلوب تخصيص مقالة عن كتاب طبقات ود ضيف الله و منشورات المهدي وأغاني السيرة .

ومن المقالات التي ظهرت ما ورد عن الدين عند الدينكا والنوير، مما يلحق إيمانهم بالأديان التوحيدية، لأنه حسب معتقداتهم، فإن الخليقة مخلوقة من قبل الخالق وأن الخلق جاءوا من الجنة وأن الخلق سيرفعون إلى دار لا عمل فيها، لأن الوفرة تغني عن العمل. كما يقوم معتقدهم على الإيمان بالله الواحد، كما تبرز وسط المقالات شهادة للخبير العالمي فرانسيس اتسجيفر الخبير الذي بدأ عمله في كنانة بطلب من المستثمر العالمي توني رولاند، والذي بالغ في إطرائه للسودانيين حيث ذكر: لا يمكن أن تجد أذكى من السودانيين لتعمل معهم، وبالنسبة له فإن السودان هو القطر الإفريقي الوحيد الذي يمكن أن يعمل فيه في فترة ما بعد التقاعد وأن في أيام عمله بالسودان كان يقضي ما بين ٧٥ إلى ١٠٠ يوم سنوياً في السودان.

وخصص الكتاب كذلك ملفاً حول الاقتصاد في السودان أشار فيه إلى قفزة الصادرات وقفزة الاستثمار عاملي البترول والسلام. وأن معدل الاستثمار أخذ يصل إلى ٢٠% من الناتج القومي، وأن إرسالية الأمم المتحدة المشتركة (الجام) للتنمية الاقتصادية وقعت خطة اقتصادية طموحة بثلاثة مجلدات، ووعدت بدعمها بأربعة ونصف بليون دولار كما أشار الملف إلى استثمارات الصين وماليزيا والهند والإمارات وقطر والسعودية والكويت.

أفرد الملف باباً للتشكيل الجيولوجي للسودان وكيف أن هذا التشكيل الجيولوجي يكشف عن وجود كميات كبيرة من المواد البترولية وأنه من جملة ١٧٠ بئراً استكشافية تم حفرها بالسودان أوضحت وجود حوالي سبعة بلايين برميل بترول احتياطي ، وأن نجاح الحفريات كان بنسبة ٥٥%، وركز الملف على إسهام الشركات الصينية وبتروناس والشركات السودانية وأشار إلى مناطق المستقبل

للاكتشافات البترولية في النيل الأزرق وحقل الخرطوم والبحر الأحمر وشمال السودان، حيث برزت نتائج مشجعة وتفيد التوقعات إلى وجود كميات كبيرة من الغاز والبترول مما يفسر ظاهرة الهرولة تجاه السودان والتسابق عليه والصراع الدولي حوله.

هذا بالإضافة إلى مقالات أخرى عن المياه والزراعة والأغذية والحضارة والتاريخ .. وباختصار قد أسدى القائمون على شركة كنانة خدمة كبيرة لتاريخ السودان وحاضره وحركة البحث العلمي بإنجاز هذا السفر.